

الدرس الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السابع والعشرون

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في النفس
وكرهت أن يطلع عليه الناس " رواه مسلم .

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال أتيت رسول صلى الله عليه وسلم فقال : " جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت
نعم ؛ قال : استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في
النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك "

حديث حسن رواه في مسندي الإمام أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن

الشرح ..

حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه وكذلك حديث وابصة ؛ هو في باب الخلق والأدب ولزوم
خصال البر والبعد عن الإثم وعن كل ما لا تطمئن إليه النفس ولا يرتاح إليه القلب ، وأن
المؤمن ينبغي له أن يعيش ورعاً وبعيداً عن الأمور المشتبهات وعن الأشياء التي تحيك في
صدره فلا يطمئن إليها ، ولا يرتاح لفعالها .

وقد مرَّ بعض الأحاديث المقررة لمثل هذا المعنى كقوله عليه الصلاة والسلام " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ
لدينه وعرضه " ، وقوله صلى الله عليه وسلم " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .

وهنا قال " البر حسن الخلق والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس " :

" البر " : هذه في أصلها كلمة تجمع أمور الدين عقيدة وعبادة ؛ كما هو واضح في آية البر
من سورة البقرة ؛ قال تعالى { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن

بالله واليوم الآخر و الملائكة والكتب والنبين } ؛ هذه عقائد مكانها القلب ، ذكرها الله سبحانه وتعالى في خصال البر وأوصاف أهله .

ثم ذكر جل وعلا أعمال البر وأوصاف أهل البر العملية بعد أن ذكر جل وعلا أوصافهم العقدية الإيمانية ؛ قال {وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} فهذه الآية يسميها جماعة من أهل العلم آية البر ؛ لأنها جمعت خصال البر التي في القلب والتي أيضاً في الظاهر ، جمعت خصال البر الباطنة والظاهرة؛ الباطنة وهي عقائد الإيمان في قوله {ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين} والظاهرة التي هي شرائع الإسلام وأعمال الدين ؛ وذلك في قوله تعالى {وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى .. } إلى تمامها .

والآية تدل أن البر وصفٌ يجمع الدين كله - عقيدةً وشريعة - فعقائد الدين من الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر .. ؛ هذه كلها بر ، وأعمال الدين وشرائع الإسلام من صلاة وصدقة وصيام وإحسان وغير ذلك ؛ هذه أيضاً خصال وأعمال بر ؛ فالدين كله بر .

وقوله صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق " : هو من قبيل قوله صلى الله عليه وسلم "الحج عرفة" ، ومن قبيل قوله صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة " ، ومن قبيل قوله صلى الله عليه وسلم " الدعاء هو العبادة " ؛ فهنا قال " البر حسن الخلق " : ونحن عرفنا أن البر يشمل الدين كله ؛ فقولته صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق "

• فإذا كان المراد بحسن الخلق أي لزوم آداب الشريعة بحسن المعاشرة وطيب النفس والسماحة وغير ذلك من الخصال الطيبة ؛ فهذا جانب من جوانب الدين ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم " البر حسن الخلق" فيه اهتمام بهذا الجانب وتعلية لشأنه وبيان مكانة الأخلاق في دين الله ومنزلتها من دين الله تبارك وتعالى .

• وإذا أُريد بالخلق الدين - ويأتي في تفسير أهل العلم من الصحابة ومن تبعهم بإحسان لبعض النصوص المتعلقة بالأخلاق - يفسرونها بالدين ؛ كقوله تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ؛ قال بعض المفسرين من الصحابة وغيرهم : الخلق الدين ، ومعنى { على خلق عظيم} أي على دين عظيم .

وكذلك قوله " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " أي يتمم دين الله بالأدب مع الله والأدب مع عباده فهذا كله داخل في باب الخلق ، كما أن الأدب مطلوب مع الناس فالأدب مع الله وهو المقدم . والذي يتخذ مع الله الأنداد ويجعل معه الشركاء ، ويصرف أنواعاً من العبادة لغير الله ؛ فهذا خرج عن نطاق الأدب مع الله ، أين الأدب وأين الخلق في شخصٍ خلّقه الله ومنّ عليه بالقوى والحواس والصحة والعافية ، ثم يتجه في رغباته ودعائه وذله وخضوعه إلى عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا منعاً ولا عطاءً ، فضلاً عن أن يملك شيئاً من ذلك لغيره !! ولهذا المشرك الذي اتخذ الأنداد خرج عن الخلق ، وخرج عن ما قاله النبي ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" أي خلق عند من تفسد عقيدته ويخرج عن الإخلاص وإفراد العبادة لله تبارك وتعالى ؟!

أقول ذلك لأن أقواماً ساء فهمهم لحديث النبي ﷺ " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فأرادوا من خلال هذا الحديث التقليل من شأن العقيدة والانتقاص من شأن التوحيد ، وأن الأهمية هي في الخلق والأدب .

وهذا من عدم فهم كلام رسول الله ﷺ لأن مُحتل العقيدة ناقض التوحيد المشرك بالله سبحانه وتعالى خرج بشركه ونقضه لتوحيده عن الخلق العظيم الذي بُعث به النبي ﷺ ، ولما قال تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ، ووصفت عائشة رضي الله عنها خلقه لما سُئلت عن خلقه ماذا قالت ؟ قالت : " كان خلقه القرآن " يعني الائتمار بالقرآن والانتهاء عما نهى عنه القرآن والتصديق بما في القرآن ؛ ويأتي في مقدمة ما في القرآن الكريم الاعتقاد والنهي عن الشرك . فالذي ينقض التوحيد خرج عن الخلق العظيم الذي بُعث به النبي ﷺ ؛ ولهذا باب الأخلاق وباب الآداب أوسع من أن يكون مجرد المعاملة مع الناس باللطف وحسن المعاشرة ؛ فهذا جانب من الأدب ؛ ولهذا لما ذكر بن القيم رحمه الله تعالى منزلة الأدب في كتابه -المستطاب مدارج السالكين - ؛

ذكر أن الأدب ثلاث مراتب : الأدب مع الله والأدب مع رسول الله ﷺ والأدب مع عباده الله . وأعظم الأدب الأدب مع الله جل وعلا قال ﷺ "استحيوا من الله حق الحياء" ؛ الحياء من الله أدب مع الله ؛ قال ﷺ "الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى .. إلى آخر حديثه ﷺ .

الأدب مع الله يكون بالإقرار بربوبيته ؛ بتفرد الخلق والرزق والإنعام والإيجاد .

الأدب مع الله يكون بالإيمان بأسمائه وصفاته وعظمته وجلاله وكماله ، وعدم تحريف شيء منها أو تعطيل شيء منها ، أو تشبيه الله تعالى وتقدس بخلقه .

والأدب مع الله أن يُفرد بالعبادة وأن يُخص بالذل والخضوع والانكسار .

هذا كله أدب مع الله جل وعلا وهو أعلى الأدب ، وإذا افتقد لا قيمة لما يوجد عند الإنسان من معاملات طيبة مع الناس ؛ إذا فسد أدب الإنسان وخلقه ودينه مع ربه جل وعلا ما قيمة المعاملة الطيبة مع الناس وقد أضاع الأدب مع رب الناس ورب العالمين جل وعلا؟ ولهذا الأدب مع الله جل وعلا يكون بتوحيده وإخلاص الدين له جل وعلا .

أما من يشرك بالله فهو سيئ الأدب مع ربه ، وسوء أدبه هو أشنع سوء الأدب وأخطره ؛ قد قال الله سبحانه وتعالى عن المشركين الظانين بالله ظن السوء { الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء } .

فالشاهد أن حسن الخلق قد يُراد به مجرد المعاشرة والمعاملة ، وقد يراد به حسن الدين عقيدةً وعبادةً وخلقاً .

قال " والإثم " : أي ما يَأْثُم به العبد ، ويكون بفعله مستحقاً للعقاب من الله جل وعلا .
" ما حاك في النفس وكرهت أن يطَّلَعَ عليه الناس " : هذا ضابط يجده المسلم الصادق في قلبه و " حاك في النفس " أي تردد في الصدر ، أو لم يرتح العبد لفعله ولم ينشرح صدره للقيام به ووجد نفسه غير مطمئن له .

" وكرهت أن يطَّلَعَ عليه الناس " : قام في قلبه خوف من أن يطَّلَعَ عليه الناس ؛ فالشيء الذي يتردد في الصدر بحيث لا يكون صدرُ المؤمن مطمئناً له ولا منشراحاً له ويخشى أن يطَّلَعَ عليه الناس وهو يفعل هذا العمل ؛ فهذا إثم .

لأن أمور البر وخصال الخير والإحسان ؛ الصدرُ ينشرح لها ويلتذ بفعلها ويتهيج بالقيام بها ، ولا يخشى من الناس لو اطلعوا عليه يفعل هذا العمل أو يقوم به ؛ لا يخشى منهم لأنه يقوم بعمل صالح وعمل من أعمال البر ؛ بينما أمور الإثم فإن الإنسان الذي في قلبه حياء وفي قلبه أدب يمتنع عنها إن خشي إطلاع الناس عليها .

فالشاهد أن هذا ميزانُ أكرم الله سبحانه وتعالى به عبده المؤمن إذا أقدمت نفسه على ما لا يُحمد من الخصال فإن صدره لا يرتاح ولا يطمئن لفعل الأمر ويكون متخوفاً من مثل هذا

العمل أن يُطلع عليه ، أو لا يجب أن يُرى وهو يفعل مثل هذا العمل ، وهذا ضابط يجده المسلم في قلبه .

وهذا يذكرنا بما مرَّ من قول النبي عليه الصلاة والسلام " إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً " ؛ وذكر في الحديث الواعظ الذي في جوف الصراط الذي يقول " يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن فتحتَه تلجَه " ثم بيّن ذلك فقال " وهو واعظ الله في قلب كل مسلم " ، وهو من حديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه .

فالمسلم صادق الإسلام إن أقدمت نفسه على مالا يحمده أو ما يشتبه في فعله لا يرتاح ولا يطمئن ، بينما إذا تمادى الإنسان في الغي والعصيان وارتكاب المحرمات يتبلد فيه هذا الإحساس ؛ ولهذا هذا الضابط في حق المسلم المحافظ على إسلامه وعلى دينه والمبتعد عن الآثام ، لكن الذي أوغل في الحرام وتمادى في الباطل واستمرّ الباطل استمراءً وتوغل فيه ، يصل بعضهم إلى درجة أنه يفعل الإثم ولا يحيك في صدره شيء ، ويفعل الإثم ولا يبالي لو اطلع عليه الناس لأن إحساسه تبلد ورقّ دينه وضعف إيمانه ضعفاً شديداً إن لم يصل بعضهم إلى مرحلة ذهاب الإيمان ؛ فمثل هذا لا يقع في نفسه هذا المعنى أن يحز في نفسه أو يخشى أن يطلع عليه الناس .

فإذا جاءك إنسان متمادٍ في المعاصي والمحرمات والإجرام و ترك الطاعات وقال لك : ما الإثم ؟ فلا يناسب أن تقول له : الإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس ؛ فشأنه آخر ، أصبح في حال - نسأل الله لنا العافية أجمعين وأن يهدي ضال المسلمين - أصبح في حال لا يشعر بهذا الشعور ولا يحس بهذا الإحساس ، وكثرة الإمساس يُذهب الإحساس ؛ فهذا الميزان (إن صحت العبارة) متعطل عنده .

فهذا يُعرّف له الإثم بتعريف آخر ، وللكلام معه مجال آخر وباب آخر ، وكما يُقال : لكل مقام مقال .

قال " جئت تسأل عن البر والإثم " : قبل أن يتلکم وابصة قال له عليه الصلاة والسلام ذلك ؛ وهذا كما ذكر أهل العلم محمول على علم سابق من النبي صلى الله عليه وسلم باهتمام وابصة بهذا الأمر وبحثه عن هذا الموضوع فيكون عنده علم سابق بتحري وابصة عن هذا السؤال ، قد يكون طرح السؤال على بعض الصحابة أو نحو ذلك..

قال " قلت نعم " : أي نعم جئت أسأل عن البر والإثم
قال : " استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب "
قوله " واطمأن إليه القلب " : الأقرب أنه بمعنى ما اطمأنت إليه النفس فيكون ذكره للتأكيد ؛
مثل أن تقول لشخص : أن يكون قلبك مرتاح ، نفسك مطمئنة .
" البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب " والمعنى أنك لا تشعر في قلبك تجاهه بأي قلق
أو ارتياب أو عدم اطمئنان .

" الإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر " : الشيء الذي تجد قلبك غير مرتاح له ولا مطمئن ،
متردد في صدرك ، وتجد نفسك تقدم رجل وتؤخر أخرى ، وأحياناً بعض الأمور تجد نفسك
تقدم رجل وتؤخر اثنتين - من شدة عدم ارتياحك للأمر وعدم اطمئنانك إليه - فمثل هذه الأمور
التي بهذه الصفة تجنبها وابتعد عنها نضير ما سبق من قوله صلى الله عليه وسلم " فمن اتقى الشبهات فقد
استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام " .

قال " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : أي وإن قال لك بعض الناس لا بأس ؛ مثل أن يسأل أحد
العوام فيسأل زميلاً له لا فقه له ؛ فيقول : ما رأيك أفعل كذا ؟ يقول له لا بأس ، أو يجاب
بغير مستند ، أما الأمر الذي يُفتى فيه الإنسان بالدليل الواضح والبرهان البين من كتاب الله
وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهو مرد النزاع والمعول في الأمور والمرجع .

قال " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : أي وإن قال لك بعض زملائك أو بعض رفقاءك لا بأس
بالأمر ولا حرج .. ؛ لا تفعل ذلك ، لكن إن كان الأمر بالدليل الواضح والحجة البينة من
كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فهذا هو المعول والمعتمد .

وبعض الناس قد يكون عنده جرأة في هذا الباب ممن لا فقه له في دين الله ، حتى إن بعض
العوام ينقل عن عوام آخرين أنهم يفتونه في أمرٍ قول أهل العلم واضح في الحكم عليه بالحرمة
، ويقول له ذلك العامي : افعل وذنبك على رقبتى !

وقول هذا - وذنبك عند رقبتى - هذه جعلها مقام الدليل عند أهل العلم ، ولما كان لا يحسن
دليلاً تغاضى عن ذلك بهذه الكلمة - افعل وذنبك على رقبتى .. أو يقول ما جاك عليّ ... ؛
وهذا من أعظم المحرمات وأشنع الآثام ؛ ألا وهو القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم {وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون} .

وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم " استفت قلبك " ؛ لمن تُقال ؟ قالها النبي عليه الصلاة والسلام لو ابصت ؛ فمن كان في مثل مقام وابصة ، حريصاً على الخير وورعاً ومتقياً لله وبأله مشغول يريد أن يعرف البر ويعرف الإثم ؛ فمن كان في مثل هذا المقام يُعرّف له البر والإثم بهذا التعريف ، لكن الشخص الذي تمادى في المحرمات إذا سأل عن الإثم فليس من المناسب أن يُقال له " استفت قلبك " ؛ فما الذي ورطه في هذه الجرائم إلا قلبه المريض ، وإن استفتى قلبه زاد غياً وضلالاً وضياًعاً ، وهو لم يقع في هذه الأعمال المنكرات والشنائع المتعدّدة إلا لمرض قلبه فلو قلت له " استفت قلبك " . فمعنى ذلك أنه يزداد

فقوله صلى الله عليه وسلم " استفت قلبك " : هو في مقام الورع الذي يسأل عن البر وعن الإثم ويتحاشى الحرام ويحرص على أمور البر ، ويخاف الله سبحانه وتعالى ؛ يقال له مثل هذا ، أما الشخص الضائع في المحرمات المبتلى بأنواع الآثام فهذا مجاله وبابه آخر ؛ لأن لو لم يفهم مقصد النبي عليه الصلاة والسلام ومراده ربما جنح بعض العصاة إلى أنواع من المعصاي ربما يبنون على ذلك ، وأحياناً يُسمع من بعض الجهال استدلالات للحديث في غير بابها وحمل لها على غير مرادها ومقصودها ويكون بذلك متبعاً لهواه وليس متبعاً لهدى الله جل وعلا .

قال الشيخ عبد المحسن العباد في شرح الحديث :

[الأول : حديث النّوّاس رواه مسلم ، وحديث وابصة رواه أحمد والدارمي وفي إسناده مقال لكن له شواهد بأسانيد جيدة ذكرها الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم ، وهو في الجملة مماثل لحديث النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه] .

الشرح..

... حديث وابصة بن معبد في معناه في الجملة مماثل لما دلّ عليه حديث النّوّاس بن سمعان

• رضي الله عنه

[ثانياً : البر كلمة جامعة تشمل الأمور الباطنة التي في القلب والأمور الظاهرة التي تكون على اللسان والجوارح ، وآية { ليس البر أن تولوا وجوهكم } واضحة الدلالة على ذلك ؛ فإن أولها مشتمل على الباطنة ، وآخرها مشتمل على الأمور الظاهرة ، ويُطلق البر على خصوص بر

الوالدين لا سيما إذا قُرُن بالصلة فإنه يراد بهما بر الوالدين وصلة الأرحام ، ويأتي البر مقروناً بالتقوى كما في قول الله عز وجل {وتعاونوا على البر والتقوى} ؛ فعند اجتماعهما كما في هذه الآية يُفسر البر بفعل الطاعات، والتقوى بترك المنهيات ، فإذا أُفرد أحدهما عن الآخر في الذكر شمل المعنيين جميعاً ؛ وهذا نصير الإسلام والإيمان ، والفقير والمسكين] .

الشرح..

البر كلمة جامعة تجمع الدين كله -عقيدة وعبادة - تجمعها في أمور الباطنة التي في القلب والظاهرة على الجوارح ومن الشواهد على ذلك آية البر في سورة البقرة ..، وإذا قرن البر بالتقوى كما في بعض الآيات {وتعاونوا على البر والتقوى} يكون البر بفعل الطاعات، والتقوى بتجنب المعاصي فالبر فعل الطاعة والتقرب إلى الله بما شرع والتقوى تجنب ما نهى الله عباده عنه ، هذا إذا جُمعا في نص واحد ، وما ذكره الشيخ هو على قاعدة إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ؛ فالبر والتقوى إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى ، وإذا افترقا في الذكر - يعني ذكر كل منهما مفرداً عن الآخر - شمل معنى الآخر .

[ثالثاً : جاء في حديث النواس رضي الله عنه "البر حسن الخلق" ؛ وحسن الخلق يحتمل أن يكون المراد به خصوص الخلق الكريم المعروف بهذا الاسم ، ويكون تفسير البر به لأهميته وعظيم شأنه ؛ وهو نصير الدين النصيحة والحج عرفة ، ويمكن أن يُراد به العموم والشمول لكل ما هو خير؛ ويدل عليه وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لخلق الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه القرآن ؛ والمعنى أنه يتأدب بآدابه ، ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه].

الشرح..

قوله في الحديث "البر حسن الخلق" : هذه تحتمل أحد معنيين :
إما أن يراد بحسن الخلق خصوص الخلق الكريم والمعاملة الطيبة . مثل طلاقة الوجه وحسن المعاشرة وطيب التعامل مع الناس . ، ويكون تفسير البر بهذا الخلق الذي هو التعامل مع الناس ؛ فيه اهتمام بجانب الخلق والأدب ، وبيان لعظيم شأنه .
والاحتمال الآخر : أن المراد بحسن الخلق هو العموم والشمول لكل ما هو خير ؛ مثل ما قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم "كان خلقه القرآن" ؛ ومعنى ذلك التأدب بآداب القرآن

وامتثال الأوامر واجتناب النواهي ؛ ولهذا قال بعض الصحابة وبعض المفسرين من بعدهم في قوله {وإنك لعلی خلق عظیم} أي على دين قويم - يُطالع في هذا كُتب التفسير بالمأثور- ؛ فالخلق قد يراد به الدين عموماً ، وقد يُراد به خصوص المعاملة الطيبة ؛ فإذا كان المراد به المعاملة الطيبة فيكون ذكر النبي ﷺ لهذا من باب الاهتمام بالمعاملة الطيبة وأن لها مكانة عظيمة من البر ، وإذا كان المراد بحسن الخلق الدين كله فالأمر واضح ؛ يكون قوله "البر حسن الخلق" مثل ما جاء في آية البر ؛ شاملة الدين كله .

[رابعاً : قوله " والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " : من الإثم ما يكون واضحاً جلياً ، ومنه ما يحوك في الصدر ولا تطمئن إليه النفس ، ويكره الإنسان أن يطلع عليه الناس ؛ لأنه مما يُستحيا من فعله فيخشى صاحبه ألسنة الناس في نيلهم منه وهو شبيه بما جاء في الأحاديث الثلاثة الماضية :

" فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " ، و " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ، و " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت " .

والإثم يُراد به عموم المعاصي ، الواضحة والمشتبهة ، ويأتي مقترناً بالعدوان كما في قوله عز وجل {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ؛ فيُفسر العدوان بالاعتداء والظلم ، فيدخل فيه الاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

الشرح..

الإثم يكون في الأمور الواضحة الجليّة ، ويكون أيضاً في الأمور المشتبهة الخفية ، وقد مر حديث النعمان " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات " ، وقد أرشد عليه الصلاة والسلام إلى تجنب المشتبه ؛ وقال "فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام" .

الإثم الواضح والحرام البيّن يجتنبه الإنسان المؤمن .

والإثم الذي ليس بواضح بل هو مشتبه ؛ هو الذي يحوك في الصدر ، ولا تطمئن إليه النفس ، ويكره الإنسان أن يطلع عليه الناس ؛ ومثل هذا التوجيه النبوي في مثله أن يُتقى ويُجتنب ويُبتعد عنه ؛ كما يدل على ذلك حديث النواس والأحاديث الثلاثة الماضية.

من جانب آخر: الإثم قد يأتي مفرداً وقد يأتي مقترناً بالعدوان كما في قوله {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} ؛ فإذا جاء مفرداً شمل كل ما يأتى به الإنسان ، وإذا اقترن بالعدوان فُسر العدوان بالاعتداء والظلم على الآخرين بالدماء أو الأموال أو الأعراض ، والإثم فيما سوى ذلك ؛ فيكون أيضاً داخلاً في قاعدة " إذا اجتمعوا افترقا وإذا افترقا اجتمعوا " .

[خامساً: فُسر البر في حديث وابصة بما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، ولا يظهر لي فرق بينهما فقد تكون الجملة الثانية مؤكدةً للجملة الثانية باتفاقهما في المعنى ، وفُسر فيه الإثم بما يقابل ذلك ؛ وهو بمعنى ما فُسر به الإثم في حديث النواس] .

الشرح..

في حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه فسر النبي صلى الله عليه وسلم البر بما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وهما كلمتان الأقرب أنهما بمعنى واحد وأتى بهما بهذا اللفظ المقارب تأكيداً على الأمر وتوضيحاً له . وفُسر فيه الإثم بما يُقابل ذلك ؛ أي بما يقابل ما يتعلق بالبر - البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم فُسر بما يقابل ذلك ، بما حاك في النفس وتردد في الصدر ؛ يعني لم تطمئن إليه - ؛ فأرجع الأمر في معرفة البر والإثم إلى الصدر ؛ فإن كان الصدر مطمئناً مرتاحاً فهذا بر ، وإن كان الصدر غير مطمئن ولا مرتاح فهذا إثم ، وما ورد في حديث وابصة وفي حديث النواس إنما يكون في حق المسلم الذي من عادته التورع عن الحرام ، أما الشخص الذي أوغل في الحرام وتمادى في الباطل فلا يقال في حقه مثل هذا .

[سادساً : قوله في حديث وابصة " استفت قلبك " وفي آخره " وإن أفتاك الناس وأفتوك " : يدل على أن ما كان فيه شبهة وريبة ولا يطمئن إليه القلب أن السلامة في تركه ولو حصل إفتاء الناس به؛ والمقصود أن من كان من أهل الإيمان يخاف الله ويتقيه فإنه لا يُقدم على الشيء الذي يطمئن إليه قلبه ، وقد يكون الإفتاء ممن لا علم عنده ، وقد يكون ممن عنده علم ولكن ليس في المسألة دليل بين يعوّل عليه بالفعل ، أما إذا كان في المسألة دليل من الكتاب والسنة فالمتعين المصير إليه واستفتاء القلب لا يكون من أهل الفجور والمعاصي ؛ فإن

من أولئك من قد يجاهر بالمعاصي ولا يستحي من الله ولا من خلقه ، فمثل أولئك يقعون في الحرام البين ومن باب أولى المشتبه [.

الشرح ..

هذا فيه توضيح مهم جداً لمراد الحديث ومراد النبي ﷺ بقوله "استفت قلبك" ؛ وهنا في هذا السياق فيه التنبيه على أمرين :

الأول : قوله "استفت قلبك" ؛ من الذي يُقال له استفت قلبك ؟ وأيضا التنبيه الآخر يتعلق " إن أفتاك الناس "

ففيما يتعلق بقوله "استفت قلبك" ، هذا في حق من؟ ، قال : المقصود أن من كان من أهل الإيمان يخاف الله ويتقيه ، ويتورع عن الحرام ويخاف من الوقوع في الحرام ؛ هو الذي يقال له استفت قلبك ؛ لأن الواعظ يعمل عنده ، والوازع الديني متحرك في قلبه .

ثم قال : استفتاء القلب لا يكون من أهل الفجور والمعاصي ؛ يعني لا يقال للفاجر استفت قلبك ؛ لأن أولئك يجاهرون بالمعاصي ولا يستحيون من الله ولا من عباده ، والفاجر فاجر قلبه والعياذ بالله وأصبح لا يستحي من الله ولا يستحي من خلق الله ؛ فهذا لا يقال له أبداً استفت قلبك ؛ وبهذا نعلم أن الفتوى يُنظر فيها إلى حال المستفتي ؛ إذا سأل سائل ما الإثم؟ فالجواب يختلف في هذه الحالة للإنسان الورع ، والإنسان الفاجر ؛ فالورع له جواب والفاجر له جواب ؛ كلٌّ له جواب يتناسب مع حاله ؛ هذا له جواب يتناسب مع ورعه ، وجوابه لا يصلح للفاجر ، والفاجر له جواب يتناسب مع فجوره ؛ ولهذا ابن عمر رضي الله عنهما لَمَّا سأل بعض الناس عن دم البعوض قال كلمته المعروفة : " يستفتون عن دم البعوض وقد أراقوا دم الحسين " !! فالشاهد أن معرفة حال السائل له أهميته في الجواب الذي يجاب به السائل .

التنبيه الآخر قوله : " أفتاك الناس وأفتوك " : ما المراد بالناس هنا ؟ ولعل قوله ﷺ في الحديث "أفتاك الناس" فيها التنبيه إلى أن الفتوى المعنية هنا ليست الفتوى الصادرة من أربابها ؛ فما قال " إن أفتاك أهل العلم " أو قال " أفتاك أهل البصيرة " أو قال " أفتاك أهل الذكر " ..

قال "وإن أفتاك الناس وأفتوك" : يعني وإن كان الناس قالوا لك : لا حرج ، لا بأس ، في ذمتي .. ، بعض العوام سهلة على لسانه ، فما يحسن معرفة الأدلة والنصوص وكلام أهل العلم ، ويتجرأ على دين ويقول "في ذمتي" أو "في رقبتي" أو "أنا المسؤول" ..

ولهذا قد يكون الإفتاء الذي يحصل من الناس إفتاء ممن لا علم عنده ، وقد يكون ممن عنده علم ولكن ليس في المسألة دليل بيّن يُعوّل عليه في الفعل ، أما إذا كان الذي أفتاك عالم راسخ بالدليل ؛ فالدليل هو الذي يجب المصير إليه .

فقلوه عليه الصلاة والسلام "إن أفتاك الناس" المراد بها واضح ؛ الشيء الذي لا يطمئن القلب إليه وإن قال الناس لا حرج أو لا عليك أو نحو ذلك ؛ عليه أن يمتنع منه عملاً بهذا الحديث ، وبقوله "دع ما يريبك" ، وبقوله "فمن اتقى الشبهات" ونظائر مما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن خلال هذا الحديث والأحاديث التي مضت بمعناه نعرف معنى الورع المطلوب : فحديث "من اتقى الشبهات" ، وحديث "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" ، وقلوه صلى الله عليه وسلم "الإثم ماحك في النفس وتردد في الصدر" وحديث "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" ؛ فهذه الأحاديث ونظائرها توضح لنا الورع الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم ، والورع حقيقته ترك ما يضر في الآخرة ،

والورع هو الذي يتجنب الأمور الذي تضره يوم القيامة . وهذه الأحاديث توضح لنا أن الورع تحقيقه يكون بتحقيق أمرين : الأول : البعد عن الحرام البيّن باجتنابه وتركه وعدم الوقوع فيه .

الثاني : البعد عن الأمور المشتبهة . كما في حديث النعمان . ، وبالبعد عن الأمور التي تريب في الإنسان . كما في حديث دع ما يريبك . ، وبالبعد عن الأمور التي يُستحيا من فعلها . لحديث إن مما أدرك الناس ... ، وبالبعد عن الأمور التي تحيك في الصدر ويخشى أن يطلع عليه الناس . لحديثي النواس ووابصة رضي الله عنهما - ؛ فالبعد عن ذلك كله ورع ، الورع يكون بأمرين : البعد عن الحرام البيّن وأيضاً البعد ع المشتبه أو الذي يتردد في النفس أو يستحي أن يراه الناس عليه إن فعله ؛ هذا تركه من الورع .

ولهذا يُروى أن أبا يوسف - تلميذ أبي حنيفة رحمه الله وغفر الله لهما - قيل له : ألفت لنا كتاباً في الورع ؛ فقال رحمته الله تعالى : " لقد ألفت كتاباً في البيوع " - وهذا من جميل الجواب وسديد البيان - ومراده أن الذي أراد أن يتورع يفقه أبواب البيوع ، لا يدخل في السوق يبيع ويشترى وهو لا يفقه البيوع المحرمة والبيوع المنهي عنها .. ؛ ثم يأتي بعد عشرين أو خمسة عشر سنة ويقول لبعض أهل العلم : أنا كنت أتعامل بكذا وكذا ؛ فما الحكم ؟ لا ؛ قبل أن تدخل

السوق تفقه البيوع ثم تباع ، الأصل في البيع الحل ؛ لكن انظر ما نهى الله عنه واعرفه . أما أن يدخل الإنسان السوق ويبيع ويشترى ؛ فهذا ليس ورع ؛ فالورع يكون بمعرفة ما نهى الله عنه وما حرمه الله ؛ ولهذا قال "ألفت كتاباً في البيوع " ؛ يعني إذا أرت أن تتورع فاقراً ما ورد في البيوع وميّز بين الحلال والحرام وعندئذ تباع وتشترى وأنت تعرف الشيء الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، أما الذي يبيع ويشترى ولا يسأل هذا ليس عنده ورع وليس من أهل الورع ، ويكون تفكيره منصباً إلى حجم الربح ؛ يعني إذا سأل في الموضوع يقول : ما نسبة الأرباح ما يفكر بالحكم الشرعي ؛ فإذا كان الربح خمسين في المائة أو أكثر لم يمتنع ، أما إذا كان نسبة الربح قليلة امتنع .. ، وإذا امتنع من البيع لا يكون امتناعه بسبب شرعي ؛ فالناحية الشرعية تركها جانباً ؛ فهذا ليس ورعاً وليس من أهل الورع ..

وليس المطلوب في الباب أن تضبط مسائل البيوع عموماً وتتعمق في دقائق هذه المسائل ، لكن الأمور التي تريد أن تتعامل بها تفقه فيها ولو بقراءة بعض المختصرات ؛ مثل رسالة للشيخ الفوزان ، صغيرة ونافعة جداً سمها: البيوع المنهي عنها ؛ نافعة جداً . وإذا اشتبه في أمر يتركه حتى يستبين له أنه حلال بيّن ؛ والقاعدة الشرعية في هذا الباب اتقاء الشبهات .

ولما خالف كثير من الناس هذا الميزان الشرعي القويم ، وتركوا هذه الأحاديث - أحاديث الورع المذكورة - ودخلوا في البيوع بدون مبالاة وبدون اهتمام حصل لهم مضار دينية ودنيوية ومالية وصحية ، وخاصة في مجال ما يسمى في زماننا هذا الأسهم ؛ أصبح كثير من الناس إذا أعلن عن بعض الأسهم ؛ السؤال المنصب وأول ما يسأل عن نسبة الأرباح ، أما الناحية الشرعية مستبعدة ؛ وأصبحت صحة كثير من هؤلاء مرتبطة بالأسهم ؛ فإذا انخفضت نسبة الأسهم زادت نسبة السكر في الدم وارتفع الضغط ، وإذا زادت حصل ارتياح .. إلى درجة أن بعضهم خرجت روحه !!

ولهذا أقول : كم نحتاج أن نقرأ هذه الأحاديث مرات عديدة ؛ حديث " من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " نكرره ، نقرأ حديث " الإثم ما حاك في النفس " ، نقرأ حديث " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ، حديث " إن مما أدرك الناس " ، ونحو هذه الأحاديث في الورع ؛ نداوي أنفسنا بالسنة ؛ فالضعف الذي حصل عندنا في جانب الورع نداويه بالسنة وبهذه

الأحاديث ، نعالج أنفسنا بكلام الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يعتدل الإنسان ويستقيم على سنة النبي صلى الله عليه وسلم بدل أن يدخل في منزلقات ومتاهات وورطات لا يحمد عاقبتها لا في دنياه ولا في أخره .

[سابعاً : ما جاء في حديث وابصة من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم له بالذي جاء يسأل عنه قبل أن ييذي سؤاله محمول . والله أعلم . على علم سابق للنبي صلى الله عليه وسلم لاهتمام هذا الصحابي بمعرفة البر والإثم ؛ فلعله حصل له مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم من قبل في شيء من ذلك] .

الشرح..

يعني قول النبي صلى الله عليه وسلم لوابصة " جئت تسأل ع البر والإثم " هذا محمول على أن النبي عليه الصلاة والسلام علم سابقاً عن وابصة حرصه على هذا الأمر إما بسؤال سابق منه للنبي عليه الصلاة والسلام أو لكونه عُلِمَ منه أنه ذكر هذا الموضوع لبعض الصحابة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعليه قال النبي: جئت تسأل عن كذا قبل أن يتكلم

[ثامناً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : بيان عظم شان حسن الخلق .

الثاني : أن البر والإثم من الكلمات الجامعة .

الثالث : أن المسلم يقدم في أمور دينه على فعل ما هو واضح الحل دون ما هو مشتبّه .

الرابع : أن المؤمن الذي يخاف الله لا يفعل ما لا يطمئن إليه قلبه ولو أفتي به ما لم يكن أمراً واضحاً في الشرع كالرخص .

الخامس : حرص الصحابة رضي الله عنهم على معرفة الحلال والحرام والبر والإثم .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*